الغارات على أطراف الشام

مقدمات الغزو :

يقول الأمير أحمد الشهابي ، في تاريخه المسمى « الغرر الحسان في أخبار أبناء الزمان » : إن الحاج الشامي لقي عنتاً كبيراً عام ١٢١٩ وإن الوهابيين – وكانوا يومئذ محاصرين للمدينـــة المنورة – فرضوا على كل واحد من الحجاج الشاميين عشرة قروش ، ولم يستثنوا من هـذه الضريبة أمير الحج نفسه ، ابراهيم باشا ، والي الشام .

وفي العـام ١٢٢٠ تولى إمرة الحاج الشامي عبد الله باشا العظم ، والي الشام الجديد ، وأرسل السلطان العثماني مندوباً عنه برتبة باشا لمرافقـة الحاج الشامي والسهر على أمنه .. وكان هذا المندوب (مولعاً في السكر حتى كانت العـامة تسميه : « سكران باشا » ، لأنه كان يقضي أوقـــاته وأواني الشرب أمامه ، والسلاح موضوع قدّامه ، فأيّ من غضب عليه ، قتله بين يديه .)

ثم خرج عبـــد الله باشا الى الحج ومعه (سكران باشا ، ساري عـسكر ، وأزقة الخمر تصحبه ..) ، ولما وصل الحجاج الى مكة ، أذنوا لهم بالحج ، بعد أن أوجبوا عليهم دفع مبلغ من المال فدفعوه .

ويقول ابن بشر : إن الشريف غـــالب (أبقى في مكة عسكراً من الترك والمغاربة وغيرهم من الحجاج وادّعى أن باشا الحاج عبـد الله العظم هو الذي رتّبهم بأمر الدولة) ، فأغضب ذلك سعود طبعاً ، فلمـا جاء عبد الله العظم ،

على رأس الحاج ، في العـــام التـــالي ، ١٢٢١ هـ . ، منعه رجال سعود من الحج وطلبوا منه العودة الى بلاده فعاد ، ويفسر ابن بشر هـــذا المنع بقوله : (إن سعوداً خاف من غالب ، شريف مكة ، أن يحدث عليه حوادث ، بسبب دخول الحجاج الشاميين وأتباعهم مكة ..)

وقـــد بقي الشاميون ممنوعين من الحج حتى مجيء طوسون واستيلائه على الحرمين .

ومهما يكن الأمر ، فإن منع الشاميين من الحج لم يحمل والي الشام ، يوسف باشا الكنج ، على معاداة سعود أو محاربته ، وقـــد اختلفت الأقوال في تفسير موقف الكنج ، فمن المؤلفين من يقول إن هـــذا الوالي اعتنق الدعوة السلفية الوهابية سراً لاقتناعه بها ، ومنهم من يقول إنه كان مشتغلاً بجمع المال لنفسه فلم يشأ إنفاقه في تجهيز حملة ضد سعود .

غزو الشام :

في سنة ١٢٢٥ هـ . قام سعود بغارة على أطراف الشام .

ويصف لنا ابن بشر هذه الغزوة ، فيقول :

(سار سعود بالجنود المنصورة والخيل الجيـــاد المسومة المشهورة ، واستنفر جميع النواحي من جميع الحاضر والبادي من وادي الدواسر الى مكة والمدينـــة الى جبل طي والجوف وما بين ذلك ، نحو ثمانية آلاف ، خرج من الدرعية لثلاث خلون من ربيع الثاني ، وقصد نقرة الشام المعروفة ، لأنه بلغه الخبر أن بوادي الشام وعربانه من عنزة وبني صخر وغيرهم فيها ، فلمـــا وصل تلك الناحية لم يجد فيها أحداً منهم ، وإذا قـــد سبقه النذير اليهم فاجتمعوا على دوخي بن سمير ، رئيس ولد علي ، من عنزة ، وهو من وراء الجبل المعروف بطويل الثلج ، قرب نابلس ، نازلين عين القهوة من جبال حوران ، ولما بلغ ابن سمير ومن معه إقبـــال سعود اليهم انهزم بمن معه من البوادي ونزلوا الغور من حوران ، فسار سعود في تلك الناحية وأقبل فيها وأدبر ، واجتاز بالقرى التي حول «المزيريب» و«بصرى» ،

فنهبت الجموع ما وجدوا فيها من المتاع والطعام ، وأشعلوا فيها النيران ، وكان أهلها قد هربوا عنها لما سمعوا بمسيره .

ثم نزل « عين لبجه » ، وروي منهـا المسلمون وشربت خيلهم وجيوشهم ، ثم أقبل على قصر المزيريب ، فظهر عليهم منه خيل فحصل طراد ، فانهزمت الخيل الى القصر واحتصروا فيه ، فأراد المسلمون الحشدة على القصر ، ولا أحب سعود ذلك ، مضنة بالمسلمين لأجل احصانه .

ثم ترحّل ، ونزل بصرى وبات فيها ، ثم رجع قافلاً الى وطنه ، ومعه غنائم كثيرة من الخيل والمتاع والأثاث والطعام .

وقد قتل من أهل الشام عـــدة قتلى ، وحصل في الشام رجفة ورعب عظيم بهذه الغزوة ، في دمشق وغيرها من بلدانه وجميع بواديه .

ومن حين قفل سعود من الشام جاء العزل ليوسف ، باشا الشام ، وسار اليه سليمان ، صاحب عكا ، فأجلاه واحتوى على جميع أمواله ، وتولى في امارة الشام) [١] .

هل فكر سعود في الاستيلاء على الشام ؟

كان سعود راغباً في بسط سلطانه على الشام ، وقـــد مهّد لذلك باتصالات ومكاتبات مع الكنج وغيره ، ثم قام بغزوها ليخبر مناعتها ، فإن عجز عن اقتحامها أصاب منها غنائم مذكورة ونشر الرعب في أرجائها فلا يفكر حكامها بالمسير الى حربه ، مكتفين بالدفاع عن أنفسهم .

وقد عثرنا على رسائل كتبها سعود وأحد أمرائه — في غزو الشام — المسمى (عليان الضبيبي) الى والي الشام يوسف باشا الكنج ، وهي تثبت لنا اجتهاد

---

(١) يصحح فيلبي أقوال ابن بشر عن الجبل الذي تغطيه الثلوج زاعماً انه جبل الشيخ في الشام وليس جبل نابلس في فلسطين ، كما توهمه ابن بشر ، ان سعود رأى الثلج هناك لأول مرة في حياته ..
والواقع ان الأماكن التي يذكر ابن بشر أسماءها في الشام تبدو غير دقيقة .. ولكن عدم دقتها أو عدم صحتها لا يعني أن الامام سعود وجنوده لم يدخلوا الى فلسطين والاردن ، قبل وصولهم الى أطراف دمشق وحوران ...

سعود في استمالة والي الشام اليه وحمله على الدخول في الدعوة السلفية الوهابية ، وقد طلب عليان الضبيبي من والي الشام أن يرسل علماء من الشام لمناظرة علماء من نجد وحدَّد مكاناً للقائهم بلدة « الكرك » في الاردن ، ووعده ومنَّاه بهذه الكلمات : (.. فان كنت قاصداً الانتفاع عند الله ثم عند سعود .. دائرتك مملكة لك ، ولوازمها بحقيقة الله لك ..) .

ويقول الأب لويس شيخو ، في بحث له في مجلة المشرق عام ١٩٢٠ م. ان الوهابيين ساروا (الى دمشق وأرادوا احتلالها ، لولا أن يوسف باشا ، والي الشام ، أرضاهم بمال أداه لهم ، فاكتفوا بوضع يدهم على أرباض المدينة وعلى غلات الغوطة المتوافرة) .

ويقول الأمير أحمد الشهابي ان جموع الوهابيين التي هاجمت قرى حوران في الشام أحدثت من الأضرار وأخذت من الغلال ما قدِّر بثلاثة ملايين درهم. ولعل في هذا التقدير مبالغة .

وجاء في بحث نشرته مجلة « لزنال ده فوياج » عام ١٨١٠ م. ان الوهابيين اقتربوا عام ١٨٠٨ م. من دمشق وطلبوا من سكانها الدخول في دعوتهم وهددوهم – ان لم يفعلوا – بالحرب ، وان يوسف باشا ، والي الشام ، فوجىء بمجيء الوهابيين ولم يكن قادراً على صدّهم لضيق الوقت ، فلجأ الى الحيلة ووعد باعتناق الدعوة وأصدر بيانات توهم بذلك ودعا قومه الى الذهاب الى الحج من غير محمل ولا طبول ، الى غير ذلك مما يرضي الوهابيين ، فسكت الوهابيون عنه ، واستطاع بهذه الوسيلة أن يتم استعداداته للدفاع عن دمشق .

وتقول ليدي بلنت ، في كتابها « الحج إلى نجد » : ان فرقة قوية يقودها أبو نقطة اقتربت من دمشق واجتهدت في الاستيلاء عليها ، ولكن عشائر الرولا ، الذين يقودهم « دريعي بن شعلان » وحلفاؤه أنقذوا دمشق وردوا عنها المهاجمين واضطروهم إلى الإنسحاب نهائياً من البلاد الشامية .

ويقول الأمير أحمد الشهابي ان الكنج يوسف باشا ، والي الشام ، خرج بعساكره إلى « المزيريب » لملاقاة الوهابيين ، وطلب من سليمان باشا والي عكا

مساعدته ، وان سليمان باشا استنجد هو أيضاً بالأمير الشهابي، أمير جبل لبنان، فجمع هــذا الأمير خمسة عشر ألف مقاتل ولكن سرعة انسحاب الوهابيين إلى أوطانهم أغنت عن القتال .

ولما علم السلطان العثماني بتثاقل يوسف باشا عن محاربة الوهابيين كتب إلى سليمان باشا انه عينه والياً على الشام، إضافة إلى ولايته على عكا ، وأمره باعتقال يوسف باشا لخيانته وتخاذله .

حاول يوسف باشا التمرد على أمر السلطان ، ولكنه لم يستطع المقاومة طويلاً ،فهرب والتجأ إلى محمد علي في مصر ،وكانت بينهما مكاتبات سابقة ومودة.

ومن المفارقات العجيبة ان سليمان باشا وجد في مكتب يوسف باشا الرسالة التي بعثها اليه سعود ، فتولى هو الإجابة عنها ، وكان رده عليها عنيفاً .